

التأويل السيميائي بين مقصدية المتكلم و حدود المؤول

* الدكتور سامي عوض

ميساء شيخ يوسف

(تاريخ الإيداع 21 / 4 / 2015 . قبل للنشر في 31 / 8 / 2015)

□ ملخص □

إنّ الهدف الذي تروم السيميائيات الوصول إليه هو بناء المعنى المتشكّل ضمن البنية العميقة للنصّ ، فالكلمات تقول أكثر مما يريد مرسلها أن تقوله ، إنّها و بكلّ بساطة ليست حيادية في نقل المعنى ، و إنّما لها دور في الكشف عن فكر المرسل ، و خبايا نفسه ، التي لا يمكن الوصول إليها إلاّ بوساطة التأويل ، المستند إلى علامات النصّ، وترابطها ، و انسجام بعضها مع بعض ، وهي تنقل المعنى الذي يريد مرسلها . و طرائق تأويل العلامات في السيميائيات متعددة و متشعبة بتشعب السيرورة الدلالية التي تولد و تنتمى بفعل الإحالات اللانهائية التي تحيل عليها ، مع ملاحظة أنّ معنى النصّ ثابت من خلال تجليه الخطي ، و غير قابل للإضافة أو التغيير ؛ لكنّ الذي يتغير هو الدلالة التي يمنحها كلّ قارئ و مؤول لهذا النصّ حسب مقاصده هو ، و مقاصد النصّ ؛ لكنّه بتأويله هذا ليس حرّاً بشكلاً اعتباريًّ إنّما هناك آليات و حدود يجب التوقّف عندها لضمان صحة هذا التأويل . و من هنا ، سعى البحث لتحديد أنواع المؤولين ، بهدف الوصول إلى ضوابط لتأويل النصوص .

الكلمات المفتاحية : النصّ - السياق - التأويل - العلامة

* أستاذ - قسم اللغة العربية - كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية
*طالبة دراسات عليا (دكتوراه) - قسم اللغة العربية - كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة تشرين - اللاذقية - سورية .

The Semiotic Interpretation: The Speaker's Intentions and the Interpretator's Limitations

Dr. Samie Awad *
Maisaa Sheikh Yousef**

(Received 21 / 4 / 2015. Accepted 31 / 8 / 2015)

□ ABSTRACT □

The main aim of semiotics is to reach the real meaning in a context as words denote more than one meaning, saying more than what the speaker wants to say. Simply, they are not neutral in delivering the meaning but rather they are one way to understand the speaker's internal thoughts and intentions which are not reachable through lines. However, you may reach these thoughts by interpreting the signs in a particular text and the way they are linked together. In semiotics, there are many different ways to interpret signs, yet the real meaning of a text is fixed and there is no way to add to or change within it; what differs is the significance. Every reader interprets a text as he thinks of it and as the text itself aims to. However, the reader is restricted in his interpretations as the interpretations of any text are not in random and there are limits at which the reader should stop to guarantee that his interpretation is correct. In brief, this research tries to define specific types of interpreters to reach defined limits to interpret a text.

Keywords : text - context – Interpretation - signs .

*Professor , Department of Arabic , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University , Lattakia, Syria .

**postgraduate student , Department of Arabic , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University , Lattakia , Syria

مقدمة :

يتألف النص من علامات تحيل على قصد المرسل ، لكنّها في الوقت ذاته تحيل على دلالات أخرى لم يقصدها ، لأنّ العلامة لا تحيل على ما يريده مرسلها فحسب ، وإنما على ما تريده هي أيضاً . وإحالتها هذه ترتبط بقدرة المؤول وكفائه . وهي إن بدت فقيرة بالمعنى ، أو تحيل على معنى واحد بالنسبة إلى بعض الأشخاص ، فقد تصبح غنية ومحتملة لتأويلات عدّة بالنسبة إلى شخصيمتلك ثقافة موسوعيّة أكثر غنىً وتنوعاً من الآخرين ، لهذا تباينت أنواع التأويل ، و أنماطه ، بحسب أصناف المؤولين ، و إمكاناتهم ، و مناهج دراستهم ، خاصة ممن اعتمدوا السيميائيات في قراءتهم للنصوص ؛ لأن طرائق التأويل فيها كثيرة ، بسبب تشعبها ، و امتدادها ، و اعتمادها على علامات تتنوع أصنافها و تتباين بتباين نوع النصّ المقدم ، فتأويل النصّ الأدبيّ يختلف عن تأويل المُلصقات الإعلانيّة، و دراسة نصّ مسرحي تختلف عن دراسة قصيدة شعريّة.

أهميّة البحث و أهدافه :

صحيح أنّ السيميائيات تقرّ بتعدد التأويلات ، لكنّها لا تقرر لا نهائيّتها ، فليست كل التأويلات مقبولة ومشروعة على حدّ سواء ، وإذا كان النص يقبل عدداً هائلاً من القراءات و التأويلات ؛ فإنّه لا يتخلّى عن انسجامه بوصفه نصّاً ؛ أي دون أن يسمح بكلّ القراءات ، التي قد يتناقض بعضها مع بعض ، أو متناقضة مع النص نفسه . بالإضافة إلى ذلك ، فإنّ النصّ يفرض مقاييس ، وقواعد ، وحدوداً معيّنة تقرضها طبيعته و نوعه ، و تتحكم بالعملية التأويلية ، وتسمح لنا بالكشف عن التأويلات التي تتناسب مع النصّ ، وفي الوقت ذاته ، تسمح لنا باستبعاد التأويلات المغلوطة وغير المقبولة ، و من هنا ، كان هدف البحث إيجاد قوانين تحدّ من تشعب الدلالات ، و في الوقت نفسه تكفل للتأويل الغنى و التنوّع .

منهجية البحث :

اعتمد البحث المنهج الوصفيّ ، ليصل إلى غايته ، فحدد مصطلح التأويل ، وأنماطه و آلياته ، و أصناف المؤول ، ليصل إلى وضع ضوابط للتأويل ، تكون بمنزلة الخاتمة التي توصل إليها البحث .
الدراسة :

1- مفهومالتأويل (Interpretation) :

إنّ تقديم تصوّر واضح عن التأويل لا يمكن أن يتمّ دون التعرّف على الأساس الذي تقوم عليه كل علامة ، وهو قدرتها على أن تحيل على موضوع معيّن ، بطريقة تجعلنا قادرين على استخدامها في فهمنا للواقع ، كما لو كانت الموضوع الذي تحيل عليه ، ولا تكون العلامة قادرة على تحقيق ذلك إلّا إذا توافر لها شرطان أساسيان :
أولهما : أن تكون مرتبطة بذلك الموضوع ؛ أي متأثرة به ، أو هناك تواضع بين الجماعة البشريّة التي تستخدم اللّغة ذاتها على استعمال هذه العلامة لتحيل على هذا الموضوع ، أو أن تقوم بينها وبين الموضوع الذي تحيل عليه علاقة سببية .

ثانيهما : " قدرة العلامة على التأثير في الذهن ؛ أي أن تثير فيه علامة جديدة ، أو فكرة ترمز إلى الموضوع بالطريقة نفسها التي ترمز فيها العلامة الأولى إليه " (1) ؛ لأن كل علامة عندما تثير في الذهن فكرة معينة ، تكون بمنزلة تأويل لها ، وهي في الوقت ذاته تأويل للموضوع الذي تحيل عليه ، ويطلق بيرس على هذه الصفة اسم " الوظيفة التمثيلية للعلامة " (2) لأن العلامة تنقل الواقع المجرد بطريقة تخيلية ، فبمجرد وجود متواليّة صوتيّة تحيل على موضوع يتوسطه قانون ، فإنها ستثير لدى المرسل إليه صورة ذهنية عن ذلك الموضوع ، بشرط أن يكون المرسل إليه يتكلم لغة المرسل نفسها، لكن هل تمثل هذه العلامة موضوعها بجوانبه كافة ؟

إنّ العلامة " تحلّ بدلاً من هذا الموضوع دون أن تمثله في جوانبه كلّها ؛ بل تتحوّل إلى علامة ثانية ، وهذه العلامة ينبغي أن يتوفّر لها ماثول ، بصرف النظر عن الفكرة أو التعبير الذي أحالت عليه العلامة الأولى " (3) ومن هنا نلاحظ أن الموضوع أو المؤول يتجسد من خلال تصوّرين :

الأول : يعتبر المؤول أو الموضوع علامة جديدة تترجم العلامة الأولى ، وتحيل عليها.

الثاني: يعدّ الموضوع أو المؤول فكرة توجد من خلالها متواليّة من العلامات ، فالعلامة الأولى لا تحيل فقط على موضوع واحد ؛ وإنما إلى موضوعات متعددة . وحتى تؤدي إلى إيصال المعنى يجب أن ترتب ترتيباً يحقق ذلك الهدف، إنّها تقيم فيما بينها علاقات تحيل على مرجعية ، وترتيبها هذا هو ما يسمح بتأويلها ، عن طريق بناء سلسلة من المرجعيات التي تحيل عليها علامات النص ف " العلامة هي كلّ ما يحدد شيئاً آخر (مؤوله) بإرجاعه إلى شيء بدوره هو الآخر يرجعه إلى موضوعه بنفس الطريقة " * (4) .

ولما كانت العلامة هي ما يجعلنا نعرف دائماً شيئاً إضافياً ، وليس ما يقصده مرسلها فقط ، فإنّ مجرد استعمال اللّغة هو تأويل لها ، لأنّه استخدام متجدد للعلامات ، وهذا التجدد في الاستخدام هو ما أعطى للتأويل صفة الحركيّة التي تعدّ أصل السيرورة الدلاليّة ، وطبيعتها الأساسيّة المميزة لها . فهي لا نهائيّة بشكل أولي ، تحيل إلى مجموعة لا تحصى من الدلالات ، ومنتشرة في الاتجاهات كلّها ، وما يعطيها هذه الحركيّة المستمرة هو المؤول الذي يحيل على مصادر متعددة ثقافيّة ، واجتماعيّة وإيديولوجيّة ، ودينيّة وغيرها مما يسهم في إغناء التأويل وتنوّعه .

2 أنماط التأويل :

ينقسم التأويل إلى نوعين :

1-2 - التأويل المطابق :

يقرّ هذا النمط من التأويل يقرّ بأنّ التأويل الوحيد للنص هو الذي يحاول الوصول إلى المقاصد الأصليّة للمؤلف ، فما يقوله النص مطابق تماماً لما يقصده مؤلفه ، وهذا يعني أن النص يتصف بوحدة دلاليّة ؛ لأنّ المؤلف لا يمكن أن يقصد أكثر من معنى واحد.

(1) Pierce , Ch . S . Collected Papers , are edited by Charles Hartshorne , and Paul Wiss , Harvard , University press , Cambridge , 8 voles , 1960 , vole 2 p2 / 330 .

(2) -المرجع السابق نفسه : 290 / 5 .

(3) - ينظر : أيكو ، إمبرتو. القارئ في الحكاية : التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية ، ترجمة أنطوان أبو زيد الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، المغرب ، المركز الثقافي العربي ، 1996 ، ص 52 .

(4) - دولو دال ، جيرار . السيميائيات أو نظرية العلامات ، ترجمة عبد الرحمن بو علي . الطبعة الثانية ، اللاذقيّة ، دار الحوار ، 2011 ، ص 96 .

* نفس الطريقة : هكذا وردت في الكتاب ، و الصواب : الطريقة نفسها .

2-2- التأويل المفارق :

وهو الذي لا يبحث في النص عما يريده مؤلفه ، ولا يهتم سبب تأليفه لهذا النص ، وإنما ينصب اهتمامه كله على ما يريد النص قوله ، وكيف يقول النص ما يقوله ؛ وهو بهذا يقرّ بتعدد الدلالات التي يحيل عليها النص ، وفقاً لتعدد العلامات ، وتتوّعها و تبعاً لهذه التعددية الدلالية انقسم التأويل المفارق إلى :

أ- التأويل اللامتناهي :

إنّه يرى في تعددية النص تعددية مطلقة ، لا حدود توقف دلالاتها ، ولا توجد قيود أو ضوابط يستند إليها التأويل سوى رغبة المؤول وثقافته ، و قدرته على استنتاج النص لربح بمدلولاته ، لكنّ هذا لا يعني أنّ النص متعدد الدلالات فقط ، أو أنّه ينطوي على معان عدّة ، بل يحقق تعدد المعنى ذاته ، وهذا التعدد لا يمكن أن تجمعه وحدة ، " وبناءً على ذلك لا يمكن أن يخضع لتأويل ، وإن كان حراً ، وإنما لتفجير وتشيتت ، ذلك لأنّ تعددية النص لا تعود لانتباس محتوياته ، وإنما يمكن أن نطلق عليه التعدد المتناغم للدلائل التي يتكون منها " (¹) هذا التعدد الدلالي على الرغم من تناغمه ، فإنّه لا نهائي ؛ لأنّ كلّ علامة تحيل على أخرى ، وهكذا تستمر سيرورة الإحالات إلى ما لا نهاية ، وهذه الإحالات غير قابلة للاحتواء في بنية دلالية مغلقة . وعلى المؤول أن يبحث في كل سطر عن دلالاته الخفية ، لأنّ الكلمات بدلاً من أن تخبر عن المعنى المقصود تخفيه ، وفي اللحظة التي يكتشف فيها المؤول دلالة ما ، يعود فيقرر أنّها دلالة غير كافية ، وأنّ الدلالة الأقرب إلى الصواب ستأتي لاحقاً .

ب- التأويل المتناهي :

يقرّ هذا النوع من التأويل بتعدد دلالات النص ، إلا أن هذه التعددية تحكمها قواعد التأويل وقوانينه " سواء تلك المتعلقة بالإرغامات اللسانية والثقافية للنص ، أو المعرفة الموسوعية للقارئ ، فالتعددية لا تعني النهائية ؛ لأنّ التأويل يخضع لقوانين واستراتيجيات نصية ، توجه هذه التعددية نحو مسارات تأويلية محتملة ومسوّغة نظرياً " (²) . ولا يتعلق الأمر بإيقاف هذا الفيض من المدلولات عن طريق إيجاد معنى واحد للنص ، يعتبر معنى أصلياً ووحيداً ، لا وجود لسواه ؛ بل يتعلق بطريقة التأويل ذاتها ، التي تبدأ بسيرورة دلالية ، وتنتهي باختيار مدلول محتمل ضمن سياق معين ، ولكن اختيار دلالة بعينها لا يعني بحال من الأحوال أنّها الدلالة الوحيدة الصحيحة ؛ وإنما هي الدلالة الأقرب إلى الصواب من وجهة نظر المؤول . وفق ما يسمح به السياق . أما المقصود بكلمة لا نهائي في هذا النوع من التأويل فليس النهائية داخل الزمن ، وإنما المقصود بها اللانهاية ضمن السيرورة الدلالية ، فالدلالة التي يحددها المؤول النهائي يقصد بها الدلالة النهائية داخل سلسلة من الإحالات ، يفرضها السياق الذي تنتظم داخله العلامة . لكنّها قد تصبح نقطة انطلاق لسيرورة دلالية جديدة ، وإذا حاولنا الاستمرار بتأويل العلامة عن طريق علامة أخرى تشرح الأولى وتتحول إلى علامة تحتاج إلى علامة جديدة تشرحها . كما يرى بيرس ، فإننا بهذا لن نستطيع تحقيق ارتباط بين عالم الفكر العالم ، الذي تقيم دعائمه العلامات ، و عالم الواقع بكل موجوداته المجردة ، مما يعني أنّنا سنفقد الصلة التي تربط ما بين المنطق العقلي واللغة ، وحتى يستطيع بيرس أن يخرج من هذه المتاهة ، توصل إلى نتيجة مفادها أنّ " العادة (Habit) " (³) بإمكانها أن توقف سيرورة الدلالة ، وقد توصل إلى هذه النتيجة من خلال دراسته للمفاهيم الرياضية ، فقد وجد أنّ تفسير تلك المفاهيم يتم دائماً وفقاً لقاعدة عامّة معينة ، وهذه النتيجة أشبه بقانون يحكم هذه

(¹) - بنكراد ، سعيد . السيميائيات والتأويل ، مدخل لسيميائيات ش . س . بيرس ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

المغرب ، 2005 ، ص 103-105

(²) - بو عزة ، محمد . رهان التأويل ، مجلة ثقافات ، منشورات كلية الآداب ، البحرين ، العدد 10- 2004- ص 17 - 29 .

(³) - Pierce : 5/476 .

العملية ، وهو ما يمكن أن نطبقه على المفاهيم العقلية ، إنَّ المعنى الذي قصده بيرس بالعادة " طريقة عقلية معينة يفسر بمقتضاها العقل أي مفهوم ، أو أنَّ العادة قد تتكون لدى الإنسان نتيجة لتكرار ردود الأفعال على الأشياء الخارجية في الظروف المشابهة ، وأخيراً قد تتكون العادة نتيجة لتكرار يحدث في العالم الباطني ؛ أي بطريقة تأويلية ، أو نظرية خالصة " (1). هذه العادة تستطيع أن توقف ، ولو بشكل مؤقت ، الإحالة اللانهائية من علامة إلى أخرى ، وفق نظام مكون من العادات ، التي أقرتها الجماعة البشرية ، نتيجة لتجربتها في الحياة ، وهذه العادة تبنى بشكل تدريجي ، وتخضع للهدم ، وإعادة البناء والتصحيح . لأنَّ التأويلات الخاضعة للعادة هي التي ستغير هذه العادة ، فغاليلو الذي قال : " إنَّ الأرض هي التي تدور حول نفسها ، وليست الشمس هي من تدور حول الأرض " وقفت الكنيسة بوجهه ؛ لأنها هي التي تمثل الجماعة الممتلئة للعادة ، الناتجة عن معرفة سابقة شكَّلت تصوراً مشتركاً لدى جميع الأفراد . ومع ذلك فالتاريخ احتفظ بالتأويلات الصحيحة (بعد اعتراف العلم الحديث بصواب رأي غاليلو) التي غيرت العادة ، وفي الوقت ذاته تجاهل التأويلات التي ثبت خطؤها .

" وبما أن العادات لا تكمن وظيفتها الأبدية في تغطية كل حقول ومجالات النشاط والمعرفة البشريين (2)، فهي دائماً في حالة نقص و خصائص ، وتعرف تزايداً مستمراً . والأفكار بدورها تتفاعل ، وتتأثر ، و تتعاقب ، ويجب بعضها البعض * بصورة متصلة ومستمرة و دائمة . و سيرورة تفاعل الإنسان مع محيطه [...] تعرف هي الأخرى التغيير والتبديل في المنازل والأحوال ، إما لزمن قصير ، أو * * * زمن أبدي . فكل هذه المواضع والمقامات في هذه السيرورات يصطلح بالتعبير عنها بالمؤول النهائي " (3) لذلك تستند العادة بشكل رئيسي إلى مفهوم المؤول ، الذي يشكل القانون الرابط بين جزأي العلامة ، فالذات التي تؤول عندما تختار إحدى الإحالات ، فإنها بالمقابل ترفض مجموعة من الإحالات المغايرة لما اختارته ، وتقبل الإحالات التي تتوافق مع ما أقرته ، وتتناسب مع العادات المنطقية للجماعة ؛ لذلك يعتبر المؤول عنصراً أساسياً في إيقاف السيرورة الدلالية ، ومنعها من التشتت ، وبناءً عليه تمَّ تصنيف المؤول إلى أصناف ثلاثة ، مرتبطة بالأحكام العقلية التي تواضعت عليها الجماعة البشرية .

3- أصناف المؤول :

3-1- المؤول المباشر :

هو المعنى الذي تحمله العلامة في ذاتها ، بصرف النظر عن السياق الذي ترد فيه وظروف التلطف للمرسل ؛ ويقابل ما نطلق عليه في اللغة العربية المعنى المعجمي لكلمة ما ، كما يمكن أن يكون علامة تستخدم للدلالة على شيء ما ، أو شخص ما ، لا يمكن أن نتبين هويته نتيجة المسافة ، أو عدم المعرفة المسبقة ، فالعربية تستخدم علامة " فلان " عندما يريد المتكلم أن يخبر عن شخص لا يريد أن تعرف شخصيته ، أو عند ضرب مثال ما لشخص ما لا على التعيين . ويمكن أن يُوصف هذا الصنف من المؤول بأنه مؤول إدراكي ، فالمؤول المباشر " للوحة تشكيلية معروضة في رواق هو المؤلف من ألوانها وحجمها وشكلها ، و توقيع صاحبها إن وجد " (4) .

(1) - المرجع السابق نفسه : 5/487 .

(2) - هكذا وردت في الكتاب ، و الصواب (كل حقول النشاط و المعرفة البشريين و مجالتهما). * هكذا وردت في المقبوس .

* * هكذا وردت في المقبوس .

(3) - الحداوي ، طابع . سيميائيات التأويل ، الإنتاج ومنطق الدلائل ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، المغرب، المركز الثقافي العربي ، ، 2006 ، ص 351 .

(4) - الحداوي ، طابع . سيميائيات التأويل ، الإنتاج ومنطق الدلائل ، ص 374 .

3-2- المؤول الدينامي :

وهو ، بحسب بيرس ، الأثر الفعلي الذي تولده العلامة في الذهن ، و يعتمد على الإيحاء الذي تحيله عليه العلامة انطلاقاً من موضوعها المباشر . مهمته فتح العلامة على معانيها المتنوعة التي تسهم بدورها في فتح السيرورة الدلالية ، دون التوقف عند ضوابط انتشارها ، يساعد على ذلك طبيعة العلامة نفسها ، لأنها عندما تحيل على موضوعها من خلال مؤولها ، الذي سيتحول بدوره إلى علامة جديدة . وهكذا إلى ما لا نهاية ، ومهمة المؤول تكمن في اختيار الدلالة التي تتناسب سياق النص ، مما " يسهم معرفياً في إرساء المؤول النهائي على مسار تدليلي دون غيره ، وهذا يعيناً الذات المؤولة التي تقوم بدور المؤول النهائي ، ينبغي أن تُوظف كل طاقة معرفية ، و تأويلية ، تجعلان عملية التمثيل في العلامة تحيل على موضوعها من وجهة نظر هذا المؤول " (1).

3-3- المؤول النهائي :

هو " الفكرة التي تحيل عليها العلامة المؤولة " (2) و المقصود بهذا المؤول ليس الحد القاطع للسيرورة الدلالية ، وإنما الدلالة التي تستقر عليها الذات المؤولة ، وفق المنطق ، الذي يفرضه السياق ، وكذلك العادات اللسانية التي تستند إليها الجماعة البشرية ، فهو في جوهره مجموعة عادات .

4 - التأويل من المقصدية إلى الحدود :

1-4- التأويل بين مقصدية النص ودور المؤول :

يبغي التأويل الوصول إلى الفهم ؛ أي معرفة القصد (Intension) من النص ، وهذا القصد مرتبط بمرسل النص ، ولكن هل يقول النص ما يريد مرسله فقط ؟

إنّ قدرة النص على الإحالة على تأويلات متعددة ترتبط بقدرة الشخص الذي يؤول . فالنص لا يشتمل على معنى واحد ، أو معان عدّة ، وإنما هو " خزان كبير لسياقات بالغة الغنى والتنوع ، والتعدد ، و التجدد " (3) ، و هذا ما يجعل الذات التي تؤول ركيزة أساسية في العملية التأويلية ؛ لأنها تتحكم في الدلالات ، فتنتقي إحداها ، وترفض الأخرى ضمن قيود يفرضها السياق ، الذي يحدّ من كل انتشار مطلقٍ للدلالات . وبما أنّ دور المؤول في التأويل دور أساسي ، فإنّ التأويلات تتعدد بتعدد المؤولين ، كما أنّها تتغير حتى لدى المؤول الواحد ، باختلاف الزمن ، وتطور موسوعته الثقافية وتنوعها .

يدعو النص القارئ ، ليكمل ما بدأه مؤلفه ، ويملاً الفراغات التي تركها ، ويسهم في بناء المعنى ، لكن هذا لا يعني أنّ القارئ يؤول كيفما شاء ، وإنما يستتطق النص ، ويحاوره ، ويسأله عن دلالاته ، والنص يستثير القارئ ، ويغريه بالمشاركة في بناء المعنى ويحرك رغبته بالمعرفة .

النص الجدير بالقراءة لا يحمل دلالةً جاهزةً ، وإنما هو عبارة عن فضاء دلالي يحرض على التأويل ، وتكمن مهمة القارئ في تحريض النص ، وتحريه من المعنى الواحد الذي قلبه فيه مؤلفه ؛ لذلك " يجد القارئ نفسه مدعواً

(1) - عودة ، أمين يوسف . فلسفة العلامة وتأويلها بين بورس و ابن عربي ، مجلة علامات ، المغرب العدد 30 2008 ، ص 12 (5-27).

(2) - إيكو ، أمبرتو . العلامة ، تحليل المفهوم و تاريخه . ترجمة سعيد بنكراد ، راجع النص : سعيد الغانمي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المركز الثقافي العربي . أبو ظبي ، كلمة ، 2007 ، ص 270 .

(3) - بنكراد ، سعيد . السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات ش . س . بورس ، ص 185 .

إلى أن يستخلص من النص ما لا يقوله النص ، ولكن ما يستلزمه ، أو يعد به ، أو يستتبعه ، أو يتضمنه ، إلى أن يملأ الأحياز الفارغة " (1)

عندما يُباشِر القارئ قراءته للنص فإنه مطالب بتفعيل هذا النص ، واستثارة سيرورته الدلالية ، التي تتصف بالحركية ؛ لأنه ليس معطى جاهزاً ينتظر من القارئ أن يتلقاه بشكل سلبي ، وإنما عليه أن يستعين بموسوعته الخاصة ليستطيع أن يستكشف ما لا يقوله صراحةً ؛ لأنّ النص يحوي ثغرات تركها المؤلف ، وعلى القارئ أن يملأها ، فالنص يحيا من المعنى الذي يملأ ثغراته ، وبما أنّ كل قارئ يملأ الثغرات بطريقته ، ووفقاً لموسوعته ، فإنّ النص يعيش حالة تجدد وحركة مستمرة ، ناتجة عن المبادرة التأويلية التي يبادرها المؤول ، فالنص جامد ينتظر من القارئ أن يتم معناه ، وقصديته تكون غائبة عن قارئه ، وهو ينتظر منه أن ينتشله من جموده ، ويحرك دواله ، ليكشف عن الثغرات التي يتركها المؤلف ، ويسهم في ملئها ، وهذه الثغرات هي التي تفسح الإمكانات للتأويل المتعدد .

العلاقة جدلية بين قصدية القارئ ، و قصدية النص ، لكن المشكلة تكمن في أننا إذا كنا نعرف بالضبط ما الذي يُقصد بقصدية القارئ ؛ لأنه هو من يبينها بمحاورته للنص ، و نحن لا نستطيع إعطاء تحديد دقيق لما يراد بمقولة قصدية النص ، لأنها ليست معطاة بشكل مباشر ، حتى وإن حدث ، وكانت كذلك ، فسيكون تحديدها محكوماً بقدرة القارئ النموذجي ؛ أي أن الحديث عن قصدية النص مرتبط بتخمينات القارئ ، ولكن حتى هذا القارئ ، وإن كان نموذجياً ، إلا أنه لا يمكننا القول عن التخمينات الصحيحة ، التي تتوافق مع قصدية النص . بعد هذا كله ألا يجب علينا أن نسأل ما هو مكان قصدية الكاتب الفعلي ؟ وهل تمّ تجاهلها لصالح قصدية النص والقارئ ؟

الغاية من تأويل النصوص ، من وجهة نظر (أمبرتويكو) الغاية منها إنتاج قارئ نموذجي يحلّ محلّ الكاتب ؛ وبذلك تكون قصدية الكاتب أمراً ليس مهماً ، ولكن إيكو في الوقت ذاته ، يقرّ بأنّ علينا أن نحترم دور الكاتب باعتباره المرسل الأصلي للنص ، ومن الظلم أن نغيّب دوره في التأويل ، فهناك حالات يصبح التعرّف فيها على نوايا المرسل أمراً في غاية الأهمية ، كما هو الحال في التواصل اليومي ، كما " أن جملة واردة في رسالة مجهولة " إنني سعيد " قد تحيل إلى عدد هائل من الذوات التي تعتقد أنها ليست حزينة ، ولكنني أنا الذي قمت في هذه اللحظة بالضبط ، بالنطق بهذه الجملة " أنا سعيد " . وبناءً عليه ، فمن المؤكد أن قصدي هو القول إنني أنا هو هنا السعيد ، وليس شخصاً آخر ، وعليكم أن تفتروضوا هذا الإمكان من أجل إنجاز التواصل بيننا " (2) . وعند هذه النقطة ، تحديداً ، لا بدّ أن يستوقفنا سؤال موجّه من قبل الكاتب يقول فيه : أنا لم أقصد هذا ؟ والردّ عليه يكمن في أنّ الكاتب عندما ألف نصّه هذا كان على يقين من أنّ هذا النص لن يُفهم أو يُؤول وفق رغباته هو ، وإنما سيتم تأويله وفق رغبات القارئ ؛ وهنا يتمّ إقصاء دور الكاتب . أمّا إذا كان الحوار تواصلياً ، فلا بدّ من استحضار قصدية الكاتب . أما فيما يتعلق بقصدية النص ، فالكلمات التي يتألف منها لها معنى متعارف عليه ، إلا أنّ النص لا يقول ما يظنه القارئ أنّه قرأه ، فبين قصدية الكاتب التي يصعب إدراكها ، و قصدية القارئ الذي يتحكم فيه هواه ، وقدرته على تأويل العلامات ، واتساع ثقافته ، أو قلّتها ؛ هناك قصدية النص الشفافة التي تظهر ، وعندها تستبعد كل تأويل ؛ لا يستند إليها ولا يتوافق مع علامات النص ، والسياق الذي يضمها .

إنّ معنى النص ثابت ؛ لأنّ مقاصد المؤلف ثابتة من خلال النص الموجود بشكل خطّي ، غير قابل للإضافة والتغيير ، ولكن الذي يتغير هو الدلالة التي يمنحها كل قارئ ومؤول للنص ، بحسب مقاصده هو ، ومقاصد النص ،

(1) - المرجع السابق نفسه ، ص 185 .

(2) - إيكو ، امبرتو . التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ص 80 .

ولكنه بتأويله هذا ليس حراً بشكل اعتباطي ، وإنما هناك آليات للتأويل ، وحدود يجب التوقف عندها لضمان صحة تأويله .

4-2- التأويل : آلياته وقوانينه .

أ- المدار Topic :

يعدُّ فرضيةً للقراءة والتأويل ، استخدمه أمبرتو إيكو ليدلِّ به على " المفهوم الذي يعني المجال الدلالي الأكبر الذي تندرج فيه موضوعات الخطاب ، والمدار هذا إذ ينجح القارئ في تعيينه ، يتيح سلسلة من الموضوعات الجديرة بالمعالجة أكثر من غيرها في النص " (1) . يعدّ المدار فرضية تعاونية يقدمها القارئ للنص ، وهي عرضة للتغير في أثناء تقدم القارئ في القراءة ، واكتشافه للثغرات التي يتركها المؤلف ، وعن طريق هذا المفهوم يستطيع القارئ أن يميِّز بين الوحدات الدلالية ، التي تقتضي منه اهتماماً ، و الوحدات الدلالية التي يجب عليه أن يطرحها جانباً ، إنها مرتبطة بشكل أساسي بالقارئ ، الذي يصوغها عن طريق أسئلة بسيطة من نوع : ما الذي يريد النص أن يقول ؟ وكيف يقول النص ما يقوله ؟ لتترجم عن طريق أجوبة من نوع : ربما يتعلق الأمر بالقضية الفلانية . وهي بذلك فرضية سابقة على النص الذي يشير إليها ضمناً أو صراحةً عن طريق إشارات تدلُّ عليها ؛ مثل العنوان الأصلي ، أو العناوين الفرعية ، التي يعنون الكاتب بها فصوله ، إنها تشكل منطلقات ضرورية للقراءة ، وكذلك نوع النص ، فكل نوع له خصوصيته ، فالرواية تختلف عن القصة ، التي تختلف بدورها عن المسرح .

يرتبط هذا المفهوم بالدرجة الأولى بالذات التي تُؤوّل ، وليس بالنص ، وهو يمثل المقاربة الأولى للمعنى ، فيعد أن يقدم القارئ أسئلته إلى النص ، يباشر عملية التأويل منطلقاً من الأسئلة التي أثارها ، وهذه الأسئلة لا تُقدّم بشكل اعتباطي ، وإنما تستند إلى إشارات موجودة في النص . فحتى يبني القارئ فرضيته عليه أن يقرأ ، ويستتبط ويخمن ، ويفكر ، انطلاقاً من النص ، مجموعة إحالات تخلق سياقاً ، يتوافق مع النص ، وتؤكد القراءة المتواصلة " وهذا يسوقنا إلى القول إنَّ تعيين المدار يندرج في باب الاستدلال ، أو ما يدعوه بيرس (Abduction قياس احتمالي) أو فرضية [.....] ذلك أنّ تعيين المدار يعني التقدّم بفرضية حول انتظام معين ، يعتري المسلك النصي ، على أن هذا النموذج من الانتظام هو ما يضع كذلك . على حد اعتقادنا . حدوداً لتماسك نص ، وشروطاً لقيامه ، على حدِّ سواء " (2) ، لكن هذا لا يعني ، بالضرورة ، أنّ النص يحوي مداراً واحداً فقط ؛ بل قد يمتلك النص الواحد جملة من المدارات المتعددة ، وعلى المؤول أن يعيد ترتيب المدارات بحسب نوعيتها ، ومن ثمَّ أهميتها .

ب- الموسوعة Encyclopedia :

تعدّ الموسوعة خزاناً يحوي جميع التأويلات الممكنة للنص ، وهي غير قابلة للوصف ، لأنَّ التأويلات ليست متناهية ، وربما تكون في بعض الأحيان متناقضة . الموسوعة قابلة للتغير مع مرور الزمن ، يعرفها إيكو بأنَّها " فرضية ضابطة (IptosReglativa) يقرر المتلقي على أساسها ، وعند تأويل نص ما ، أن يبني جزءاً من موسوعة ، تسمح له بأن يعطي إلى النص أو إلى المرسل جملة من الإمكانيات الدلالية " (3) يبدأ تأويل أي نص عند الشروع بقراءته ، وعلى المؤول أن ينطلق من بنية النص ، وليس من مفاهيم مسبقة عليه ، وقد يظن القارئ العادي أن المؤول عندما يباشر نصاً ، فإنَّ هذا النص يتكون من علامات ، لها وجود معجمي ،

(1) - إيكو ، امبرتو . القارئ في الحكاية ، التعاوض التأويلي في النصوص الحكائية ، ص 324 .

(2) - المرجع السابق نفسه ، ص 115-116

(3) - إيكو ، امبرتو . السيميائية وفلسفة اللغة ، ترجمة أحمد الصمعي ، الطبعة الأولى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص 463 .

وكل ما يقوم به المؤول لا يتعدى أن يعرف معنى كل علامة ، ومن ثمّ يجمع هذه المعاني ، و يُعيد صياغتها بطريقة مترابطة ، لكنّ الأمر ليس بهذه البساطة ، فالعلامة الواحدة تحيل إلى دلالات لا متناهية ، بحسب سعة الموسوعة الثقافية التي يمتلكها المؤول ، بحسب السياق الذي يحدّ من انتشار المدلولات ، لكنّ استخدام المؤول موسوعته الثقافية لا يعني أنه يفرض على النص المعاني التي يريدها ، فنحن لا نؤول ما بداخلنا ، وإنما يعتمد التأويل على وضع موسوعتنا في خدمة النص ؛ وبذلك تكون كل قراءة هي خلق لسياقات جديدة ، تعتمد في ولادتها ووجودها على مضمون النص ، وعندها تتوقف السيرورة الدلالية عندما تنفذ السياقات ، إلا أنّها تولد عند قارئ جديد يمتلك موسوعة مختلفة ، أو أكثر اتساعاً " لهذا فإنّ السيميائيّات لم تقص من حقلها بعض المعارف المجاورة أو المتباعدة مثل علم الاجتماع و الأنثروبولوجية و علم النفس و العلوم المعرفية بعامة ، و لا غرو أن نرى في العقود الأخيرة من القرن العشرين ميلاً إلى طلب الاستعانة بنتائج البحوث في علم النفس المعرفي و العلوم التي تشتغل على أنساق العلامات مثل السبرينتيقا و المعلوماتية و الروبوتيزم و علوم الاتصال . إنّ هذه العلوم تساعدنا كثيراً على فهم عوالم النسق الدلالي في عومومه و اتساعه ؛ و لا تقدمه لنا على أنّه عالم دلاليّ مغلق ؛ بل تتعامل معه على أنّه مجرد فرضيات منهجية لكون السيميوزيس هي نشاط دلاليّ مفتوح لا يعرف الثبات و الاستقرار ¹ .

إنّ المؤول ليس مطالباً بمعرفة الموسوعة الكلية للنص الذي يقوم بتأويله ، وإنما تكفيه معرفة ذلك الجزء من الموسوعة ، الذي يلزمه من أجل فهم أفضل للنص الذي بين يديه . فالنص بحاجة لاستعادة السياقات المضمرة المخفية ضمن نسيجه ، ولا تتم هذه الاستعادة إلا من خلال انتقاء السياقات المتضمنة في النص ، وربطها مع المخزون الثقافي لدى الذات التي تُؤول ، وهذا الانتقاء لا يمكن أن يوصف بالأحادية والبساطة ؛ لأنّ ثقافة الذات التي تُؤول تتحكم فيه ، بالإضافة إلى قصد المؤول ، وقدرة العلامات على إقامة علامات الربط فيما بينها ، لأنّ المعنى يبنى انطلاقاً من ربط الدلالات بعضها ببعض ، وجميع الوحدات الدلالية من أجل خلق سياقات جديدة ، تتفاعل مع ثقافة المؤول .

لو أردنا مزيداً من الإيضاح ما علينا سوى محاولة تأويل كلمة ، ولتكن كلمة (قط) إنّها تحيل على نوع من الحيوانات ، " ولكنّ القط ليس حيواناً سنورياً أليفاً فحسب ، لكنّه أيضاً الحيوان الذي عبده المصريون القدماء ، وكذلك هو الحيوان الذي تغنى به بودلير في قصائده ، وهو الحيوان الكسول الذي يبقى في البيت ، ولا يموت حزناً على قبر سيده ، وهو الحيوان المفضلّ عند الساحرات [...] إلى غير ذلك من التأويلات الممكنة لكلمة قط ، وإذا علمنا أن كل تأويل يقبل تأويلاً . فعندما نقول حيواناً سنورياً فذلك يستلزم تأويل كلمة سنوري ، وعندما نقول عنه إنه مفضل عند الساحرات ، لا بدّ من تأويل كلمة "مفضل" وكلمة " الساحرة " (²) وهكذا فكل كلمة يمكن أن تكون موضوعاً للتأويل ، وأداة لتأويل عبارة أخرى ، والانتقاء السياقي هو الذي يمتلك القدرة على الحد من انتشار هذه التأويلات . نحن في تأويلنا لنص ما ننتج نصاً ، " والنص الذي ننتجه ملكنا على نحو أعمق وأكثر جوهريّة من النص الذي ننتقله من الخارج ، وحين نقرأ (فأنا) * لا نمتلك النص الذي نقرؤه بشكل متواصل . أمّا حين نؤول نصاً فإننا نضيف إلى خزين معارفنا ، وما نضيفه ليس النص نفسه ، بل تأويلنا " (³)

(¹) - يوسف ، أحمد . السيميائيّات الواصفة ، المنطق السيميائي و جبر العلامات . الطبعة الأولى ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، 2005 ، ص 118

(²) - انظر : إيكو ، أميرتو . السيميائية وفلسفة اللغة ، ص 73

* هكذا وردت في الأصل والصواب فإننا .

(³) - شولزر ، روبرت . السيميائية والتأويل ، ترجمة سعيد الغانمي المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1982 ، الطبعة الأولى ص 25

الخاتمة :

إنّ الدلالات التي تحيل عليها العلامات كثيرة و متباينة تحكمها أحياناً الذات المؤولة ، و أخرى السياق الاجتماعي و ثلاثة قرائن توجد داخل النص نفسه ، توجه الدلالات وجهة دون أخرى . و عليه بإمكان البحث أن يُجمل بعض الضوابط التي قد تساعد على الحدّ من انتشار التأويلات ، و منها :

1- مراعاة مقصدية النص : إنّ التأويل الصحيح يقتضي مَنّ مراعاة ما يقصده النص ؛ لأنّه منبع الدلالة ، والأساس الذي يجب أن يُبنى عليه المعنى ، فلا يُمكن للمؤول أن يحاول إقصاء مقصدية النص لصالح ما يريده مؤلفه؛ لأنّها سابقة على وجوده ، أو أن يطابق بين مقصدية النص و فهم المؤول ، لأنّها لاحقة عليه ، وتعدّ محاولة لإسقاط دلالات يريدها المؤول ، ولا يقتضيها النص ؛ لذلك يجب على التأويل أن يبيّن قصد النص ، ويبيّن عليه في الوقت نفسه ، فالمؤول لا يستطيع أن يُرغم النص على أي تأويل يريده ، مثله في ذلك مثل صانع الفخار ، الذي يستطيع أن يشكل من الصلصال أي شيء يريده ، لكنه لا يستطيع بصلصاله هذا أن يشيد بناء صالحاً للسكن ، أو ينسج ثوباً يمكن ارتداؤه.

2- الانسجام و الوحدة العضوية للنص : يعد الانسجام " مبدأ أساساً في أي محاولة تأويل سيميولوجي ، قائماً على خيارات تؤمن الروابط المنطقية بين الملفوظات ، وبين * مقام التلفظ " (1) فتأويل نص ما هو بناء لنص جديد ، يُسهّم فيه المؤول ، وعلامات النص ، وحتى يكون التأويل صحيحاً ، يجب أن يحقق انسجاماً في بنيته ، هذا الانسجام ينتج عن الوحدة العضوية ، التي تجمع علامات النص .

تتمتع الدوال في النص الواحد بقدرة كبيرة على الإحالة على مجموعة من المدلولات المتنوّعة ، التي قد تكون متناقضة في بعض الأحيان . وحتى يتم الوصول إلى المعنى الشامل والمتماسك ؛ يجب أن يتم الربط بين مجموعة المدلولات ، وعند ذلك تطرح بعض المدلولات التي لا تستطيع القيام بعلاقات ترابط مع غيرها ، وكذلك المدلولات التي لا تتناسب مع السياق ، فالنص يتميز بوحدة عضوية ، ومن غير الممكن أن يختار المؤول مدلولاً يكون مستقلاً من حيث المعنى الذي يحيل عليه عن المدلولات الأخرى ، والأمر هنا لا يتعلق بالمدلول الخاص بكل علامة ، بل بالمدلولات جميعها ، والمجموع الدلالي المتحصل من إحالات العلامات برمتها ، هو الذي يفرض شكل العلامة المفردة ومدلولها ؛ أي أنّ كلّ تأويل يُعطى للعلامة الواحدة ينعكس على مجموع العلامات ، الأمر الذي يحتم علينا الخضوع لهذا الانسجام ، والتأسيس عليه ، وتحقيق هذا الانسجام ، يسهم في وضع حدود للتأويل ، ويؤقّف تعدد الدلالات إلى ما لا نهاية .

3- الانتقاء السياقي : إنّ المؤول في انتقائه مجموعة من المدلولات يخلق سياقاً جديداً مبنياً على فرضية القراءة، هذا السياق يُسهّم في بناء التشاكلات بين مجموعة من الوحدات الدلالية ، لكن هذه التشاكلات قد تكون متنافرة ومتناقضة ، وهنا يأتي دور السياق في تحديد أكثر التشاكلات أهمية ، وصحيح أنّ الانتقاء السياقي لا يسمح لنا أن نميز ما بين مختلف التأويلات المناسبة للنص ، إلا أنّه على الأقل يسمح لنا أن نميز ما بين التأويلات المشروعة ، والتأويلات الاعباطية .

* هكذا وردت في المقيوس .

(1) - بو عتور، محمد . عن الخطاب والانسجام ، ترجمة أحمد الفوحي ، مجلة علامات ، المغرب العدد 30 ، 2008 ، ص 41 .

بالإضافة إلى ذلك فإنّ كل علامة هي تأويل لعلامة جديدة ، لذلك فإن " كل تأويل يُعطى لجزئية نصية ما يجب أن يثبتته جزء آخر من النص نفسه ، وإلا فإنّ هذا التأويل لا قيمة له " (1) . فالسياق هو الذي يتحكم باختيار المدلولات التي يحيل عليها النص .

تأسيساً على ذلك فالمؤول ليس حراً في صنع المعنى ، وإنّما في العثور عليه ، وبنائه باتباع طرق التأويل ، ومراعاة قوانينه ، التي تخرجنا من نطاق النص ، وفي الوقت نفسه تراعي السياق الذي يجمع هذه العلامات .

المراجع :

- 1- إيكو ، أمبرتو . العلامة ، تحليل المفهوم و تاريخه . ترجمة سعيد بنكراد ، راجع النصّ : سعيد الغانمي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المركز الثقافي العربي . أبو ظبي ، كلمة ، 2007 .
- 2- إيكو ، أمبرتو . القارئ في الحكاية : التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، المغرب ، المركز الثقافي العربي ، 1996 .
- 3- إيكو ، أمبرتو . السيميائية وفلسفة اللغة ، ترجمة أحمد الصمعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى .
- 4- بنكراد ، سعيد . السيميائيات والتأويل ، مدخل لسيميائيات ش . س . بيرس الطبعة الأولى ، المغرب ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، 2005 .
- 5- الحداوي ، طائع . سيميائيات التأويل ، الإنتاج ومنطق الدلائل ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، 2006 .
- 6- دولو دال ، جيرار . السيميائيات أو نظرية العلامات ، ترجمة عبد الرحمن بو علي . الطبعة الثانية ، اللانقبة ، دار الحوار ، 2011 .
- 7- شولرز ، روبرت . السيميائية والتأويل ، ترجمة سعيد الغانمي ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1982 .
- 8- يوسف ، أحمد . السيميائيات الواصفة ، المنطق السيميائي و جبر العلامات . الطبعة الأولى ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، 2005 .

المراجع الأجنبية :

9-Pierce , Ch . S . Collected Papers , are edited by Charles Hartshorne , and Paul Wiss , Harvard , University press , Cambridge , 8 voles , 1960 , vole 2 p2 / 330 .

الدوريات :

- 10- بو عزة ، محمد . رهان التأويل ، مجلة ثقافات ، منشورات كلية الآداب ، البحرين ، العدد 10 ، 2004 ، ص ص 17 - 27 .
- 11- بو عتور ، محمد . عن الخطاب والانسجام ، ترجمة أحمد الفوحي ، مجلة علامات ، المغرب ، العدد 30 ، 2008 ، ص ص 41 - 57 .
- 12- عودة ، أمين يوسف . فلسفة العلامة وتأويلها بين بورس و ابن عربي ، مجلة علامات ، المغرب ، العدد 30 ، 2008 ، ص ص 5 - 29 .

(1) - إيكو ، أمبرتو . التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ص 79